تصريف المكان

الماضي، الحاضر، المستقبل... والمستقبل!

وديع*

فوجئت بدخولي عالم جاد سلمان.

أمشي عبر اللوحات. شيء ما يوحي لي بصورة سبق أن رأيتها ويسترعي انتباهي. هذه اللوحة تكلمني، أرغب في سماعها. اكتشف في خلفية الصورة شخص قادم من المستقبل، تجسيد للإنسان الأسمى، لا ذكر ولا أنثى، إنسان آلي من الألفية الثالثة أعيد رسم شكله. في هذه الدلالات البسيطة ما يكفي لتركي تائهاً أمام اللوحة. هذا المخلوق المنتصب أمامي يثير فيّ عواطف فريدة من نوعها ومعقدة للغاية. لكني أريد التشبث بهذه العواطف لأتمكن من تحديد كنهها قدر الإمكان. أراني أقارنها بما تبثه الأيقونات الرائجة للعذراء من براءة من وصمة الخطيئة الأصلية وغبطة في منتهى السمو. أما هنا، فالأمور معكوسة. إنني أمام براءة ممزقة مخرّقة. أثر الهدوء الظاهر ليس إلا وهماً من الأوهام. وكما المخلوق في الصورة، أشعر باندثاري تحت كومة من الخطوط السوداء القاتمة والمشحوذة، خطوط تشوهه وتستعبده دون أن يدرك. هذه العلامات هي الحد الفاصل بين المخلوق والعالم الخارجي من جهة، وبيني أنا وبينه من جهة أخرى.

من أين أتت تلك الخطوط السوداء الغليظة التي تعتدي عليه من غير أن تثير اضطرابه على ما يبدو؟ هل هذا ما نسميه الوضع البشري؟ لا أعتقد، ليس بهذه السهولة على كل حال.

بأي حق إذاً تفرض هذه الخطوط ذاتها على هذا الشخص في اللوحة وعلي أنا؟ هل تراه صورتي في المستقبل؟ تزعجني تلك الخطوط، وتخنقني تلك الأشكال. ما سرّ هذه القوة التي تتخذ شكلاً لاإنسانياً (أليست مجرد خطوط؟) وتسلب من هذا المخلوق قوة شخصيته؟ هل هذه الخطوط حدود وعراقيل تعترض حريته، بغض النظر عن ماهية حرياته؟ وهل هذه الشحطات قيود فرضت عليه ولا يمكنه التخلص منها؟ لم يخطر بباله على ما يبدو أن يتخبط ليفك أسره، ولا تظهر على ملامحه أية تعابير. بل يبدو صاحبنا هامداً مطيعاً، لا بل كالمحكوم عليه.

تربكني هذه اللوحة في حين لا أجد إجابات على أسئلتي. قراءتها تكاد تحيرني.
أبحث عن لوحة أخرى للقيام بقراءة مغايرة لعلي أعثر ربما على ملاذ آمن في إحدى زواياها. أريد الفرار... لكن مخلوقي المستقبلي يلاحقني. أعيد النظر إليه من طرف عيني فيظهر لوهلة وكأنه بعيد المنال. عجباً، بمن شبهت نفسي يا ترى!؟

لوحات جاد سلمان هي بمثابة حيزات مختلفة لكل منها معنى ثابت لو نظرنا إلى كل منها على حدا. أما محاولة تفسير معنى كل لوحة انطلاقاً من هذه المساحات فمن شأنه أن يقلص العمل الفني ككل وأن يختزله. إن القوة الكامنة في أعمال الفنان تحتم علينا قراءات مستعرضة لشيء له علاقة بحرية التنقل بين اللوحات. هذه القوة ترفض نظام القراءة السائد وتستنكره. وتتضاعف عمليات القراءة وإعادة القراءة حتى ولو كانت هذه القراءات متضادة أحياناً أو متكاملة (لما يعرف بتهكم ما بعد المواجهة).

N.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps

استحضارات غريبة حقاً وتحريضات على فقدان المعنى والمقاييس!.
«ميراثنا لا تسبقه أية وصية»... هذه الحكمة الشهيرة للشاعر رينيه شار تتجلى وبكل وضوح في لوحات جاد سلمان. إليكم لتوضيح الفكرة ما قالته يوماً تعليقاً على هذه العبارة الفيلسوفة حنة آرندت في كتابها «شروط الإنسان الحديث» وهي تستشهد بالمفكر آليكسي دو توكفيل: «إن الوصية التي تحدد للوريث ما سيؤول إليه شرعاً تستحضر ماضياً للمستقبل. من دون وصية، وإن جاز التعبير من دون تقليد (تقليد ينتقي ويعيّن، ينقل ويحافظ، يشير إلى أماكن تواجد الكنوز وإلى قيمتها)، فلا يبدو من الممكن استحضار أية استمرارية زمانية، وبالتالي ليس هناك من ماض أو مستقبل من وجهة نظر إنسانية، بل فقط صيرورة أبدية للعالم الذي نعيش فيه (...) حين يتوقف الماضي عن تسليط الضوء على المستقبل، تتوه الروح في الظلمات. إن الكنز لم يفقد بفعل ظروف تاريخية أو سوء الحظ، بل لأن التقليد لم يتوقع مجيئه أو حصوله، ولأن الوصية لم تورثه للمستقبل».

لوحات جاد سلمان تعمل في هذا الاتجاه. يسعنا جميعاً اللجوء كما يفعل إلى تصريف حيزات المكان وتكثيف الإسقاطات وإلى اعتمادها كأدوات للتخلص من وطأة التاريخ، حين يصبح التاريخ شبحاً متوهماً، أملاً في تصوّر مستقبل متحرر.
غياب الدلالات الذي يفاقمه تداخل الطبقات والأشكال والمواد والألوان ببعضها يضفي على العمل روح الحرية، ويدمر الترابط القائم في كل تشييد أو تصوير للحيز والأبعاد وما إلى ذلك من «واقع»، ويعزز عظمة البحث عن الحرية. إنه قبل كل شيء بحث متحرر من القيود الذاتية.

تكمن قوة أعمال جاد سلمان في «فيض الأشكال» لديه، فالأشكال وتمفصلها غير موجودة كما يجب أن تكون في لوحاته. سعيه لا يقوم على الأشكال (مذهب البنائية) ولا على الأشكال الجديدة (التكعيبية، الداديّة) ولا حتى على غياب الشكل (التجريدية)، فهو في لوحاته وعبر الشخصيات التي يرسمها يعطي الأولوية للشكل على الشكل. الشكل موجود، إنه هنا، دائم الحضور، لكنه لم يعد الموضوع الأهم في اللوحة. فيض الشكل يشوه الشكل، يفرض نفسه على الشكل، يقضي من الداخل على محاولات وجوده بحد ذاته ليتمكن من استعباده في نهاية الأمر. تتعدد الأشكال والألوان في كل لوحة وتتراكب على بعضها البعض، ويفسح الفنان المجال أمام مستقبل آخر عبر طبقة أخرى ما أو شكل آخر أو مادة أخرى...

لم أخرج سليماً من عالم جاد سلمان. لقد أثار في نفسي كثيراً من الانزعاج والريبة والرفض والتساؤل. أعماله تدعو إلى الزهد والعزوف. أمامها، يجد المرء نفسه مضطر فجأة للتخلي عن تصوره الخاص للعالم والتاريخ لينصرف إلى إعادة تحديد هويته.
هذا العزوف له طابع خاص. فهو يدعوكم إلى تأمل الماضي بوجه آخر، وإلى تعريف الحاضر بنحو آخر، وإلى تصور المستقبل بشكل آخر. ذلك هو تحديداً ثمن امتداد المواجهة بين الإنسان وحيزه لتشمل كامل أبعادها وتعيد الاعتبار للإنسان ضمن حيزه. وما هم إن كان الحيز مجرد وهم.

وديع؛ مخرج أفلام وكاتب صحفي فرنسي.
تاريخ كتابة المقال 2009 في باريس /فرنسا.

N.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.com www.JADSALMAN.ps